فكاهات

الفجآءة (١)

استيقظتُ يوماً سحرًا فخرجت من منزلي وكان النسيم عليلاً منعشاً فما زلت سائرًا الى ان اوصلتني خطواتي الى امام باب حديقة الازبكية فدخلتها وسرت توًّا الى محلٍّ يظللهُ النبات الغض بالقرب من البحيرة التي فيها فاتكأت على العشب وجعلت اتأمل في محاسن الطبيعة وترتيب يد الانسان . وكانت العصافير في رؤوس الاشجار تترنم وتغرد كأنها تسبح الخالق على ذلك اليوم البهيج قبل خروجها الى عملها اليومي . وبعد ان سرحت افكاري في مواضيع شتى خطر لي ان اكتب روايةً وكان سكون المحل وبهجتهُ يحببان مثل هذا العمل فأخذت قلمي وورقاً كنت احفظهُ في جيبي ثم اشعلتُ لفافةً وبدأت في الكتابة . ولكنني لم اكد اخط كلمةً واحدة حتى شردت افكاري فتوزعت في انحآء عديدة فأرسلت ورآءها رائد الذاكرة ليجمعها فلم تزدد الا تشتتاً ونفورًا وبقيت نحو نصف ساعةٍ اجاهد في ذلك فلم اصادف اليهِ سبيلاً واخيرًا ارجعت اوراقي وقلمي الى مخبئها في جيبي . واذا بصوتٍ قرع اذني في ذلك السكون على غير انتظارٍ مني فأصغت بسمعي وعلمت ان المتكلم فتاة في اوائل العمر وهي تقول بلهجةٍ الحنو باللغة الانكليزية الفصحى ولماذا اراكِ دائماً تبكين اذًا . . . فأجابها صوتٌ آخر بنفس الرقة والعذوبة أبكي يا بنيتي على حظي الاسود واسألهُ تعالى ان لا يجعل نصيبكِ كنصيبي . ثم تبع ذلك تنهدٌ من قلب جريح وكلماتٌ متقطعة من صاحبة الصوت الاول لم اتمكن من سماعها تماماً . ودفعني الاستغراب الى مشاهدة صاحبتي الحديث فنهضت من موضعي واشرفت من بين الاغصان الملتفة فرأيتُ ابنةً لا تتجاوز الرابعة من العمر تقودها بيدها سيدةٌ مرتدية

---

(١) بقلم نسيب افندي المشعلاني

فجبرةٍ سوداءَ وقد رفعت عن وجهها برقعًا من الحرير الناعم الرفيع فأزاحتهُ الى أعلى رأسها لتتمكن من مرأى ما حولها . وتبعتهما بنظري الى ان بلغتا مقعدًا حجريًّا على حافة تلك البحيرة الصغيرة فجلستا تتأملان طيورًا من الاوزّ كانت تستحمّ في المياه . فرأيت في هيئة المرأة ما ظهر لي منهُ انها من الحريم التركي المصري ولكن ما سمعتهُ من كلامها حقق لي انها انكليزية الاصل أوانها تربّت في انكلترا لانهُ لا يمكن ان تكون تناولت هذه اللغة بالتعليم وادركت هذه الغاية من حسن النطق بهـا . فزادت بي الحيرة وحملني حب الاستطلاع على ان سرت من مكاني متوجهًا الى الباب الآخر فمررت بالقرب منهما وبودّي ان استطيع مشاهدة السيدة عن قرب . ولما كدت ابلغ مكانهما سمعت الام تقول اواه فانهُ لو كان لي على الاقل من اشكو لهُ همي وانتفع بمشورتهِ لهان عليّ تحمل هذا العذاب . وما سمعت هذه الشكوى حتى شعرت ان الدم قد صعد الى وجهي وخفق قلبي فلم املك ان اقتربت من السيدة وقلت لها بلغتها الانكليزية اظن ان السيدة ان سمحت لي ان اكلمها ليست من بنات مصر . وظهر لي انها دهشت من تجاسري على محادثتها ولكنها القت عليّ نظرةً من عيني جؤذر ينبعث منهما نور يسحر القلوب وقالت لا بل انا انكليزية . قلت كنت تاكدت ذلك لو لم يموّه الحقيقة عليّ هذا اللباس الذي انتِ مرتدية بهِ . وقد سمعت على غير قصدٍ مني عبارتين منكِ علمتُ انكِ على غير ما ترومين من السرور وبما انني غريبٌ مثلكِ فقد اثر فيّ ما سمعتهُ واجترأتُ على مكالمتكِ فهل في امكاني يا ترى ان اقوم بخدمةٍ أو اسعى في امرٍ ما لمساعدتك . فحدّقت ببصرها في وجهي مدة وهي صامتة ولم يقوَ نظري على الثبات في تلك الطلعة الملائكية فأطرقت الى الارض وبعد هنيهة قالت انك تتكلم بالانكليزية نظيري فهل انت انكليزي . قلت لا ولكني درست هذه اللغة جيدًا بكافة فروعها وعاشرت بنيها وتعلمت آدابهم واخلاقهم وهذا ما دعاني الى محادثتكِ بعد ما سمعت شكواكِ . فصمتت هنيهةً وهي تتفرس في وجهي ثم قالت يظهر لي انك صادق فيما تقول ولا يزجرني ضميري عن اطلاعك على حالتي ولعلّ الله ساقك اليّ لتجدّد في نفسي بقية الامل التي كادت تضمحلّ .

ولكن التمس منك ان تعرفني بنفسك اولاً وسأعرفك بنفسي لدى تلاوة حديثي . فذكرت لها اسمي وان محل شغلي مجتمع غرائب تجارية تقصدهُ السيَّاح ثم جلست بازآئها على جانب البحيرة وكانت ابنتها الصغيرة تتوق نظيري الى سماع ما ستقصهُ علينا والدتها فساد سكون عميق كان يرن فيهِ صوت المتكلمة الرخيم فقالت

اني وُلدت في مدينة منشستر من اعمال انكلترا وابوايَ انكليزيان من اسرة غير دنيئةٍ . فاصابت والدتي حمى النفاس و بعد ولادتي بايام قلائل توفاها الله فكان ذلك اول مصيبة حلت عليَّ اذا لم احسب ان ظهوري في عالم الوجود كان مبتدأ المصائب . وكان والدي في سعة عيش ورخآء ولهُ معملٌ كبير للمنسوجات القطنية يديرهُ بمنتهى الحذاقة والنشاط . و بعد عدة سنوات ألَّف رؤسآء المعامل في بلادنا جمعيةً غرضها التضييق على الصناع والاستئثار بالسلطة والتلاعب بالاسعار فلم يشأ والدي ان ينضم الى هذه الجمعية وكان ذلك سبباً لخرابنا. فان الجمعية المذكورة مافتئت تسابقهُ وتضايقهُ حتى وقفت حالهُ تماماً وطرأت عليهِ خسائر جسيمة فوقع تحت احمال الديون الباهظة واضطرّ اخيرًا ان يبيع المعمل بثمن بخس لم يكد يكفي لوفآء الديون. ولما اصبحنا لا نملك شروى نقير وليس في استطاعة والدي ان يتعاطى غير العمل الذي نشأ عليهِ دخل في خدمة الرجل الذي اشترى معملهُ وكان كلما دخل المعمل وخرج منهُ يتخيل لهُ كيف كان فيهِ السيد المطلق ثم اصبح من بعض العملة فتضيق نفسهُ ويضغط عامل الحزن على قلبهِ فيذيب من قوتهِ وصبرهِ فابيضّ شعرهُ وانحنى ظهرهُ ولم اعد أرى فمهُ متبسماً من ذلك الحين

وكان لصاحب المعمل الجديد ابنٌ في مقتبل الحياة يدعى وليم رآني يوماً فولع بي واشتدّ هيامهُ وكنت قد بلغت السادسة عشرة من عمري فاتاني يوماً وشرح لي حبهُ وسألني ان اقابلهُ بالمثل وان اعدهُ بان اكون لهُ زوجةً . وختم حديثهُ بقولهِ ان انا وافقتهُ على طلبهِ فانهُ يرفع شأن والدي ويقيمهُ مديرًا ويزيد راتبهُ والاّ فانهُ يضايقهُ ويطردهُ من عملهِ ويتركنا في اسوأ حال . اما انا فلم اكن اميل الى هذا الفتى بل كنت اكره ان اقابلهُ لفظاظة طباعهِ وسوء آدابهِ وعلى الخصوص لاني كنت احب

ابن عمي وهو فتى يدعى شارلس هيل ادركهُ اليتم صغيرا فاخذهُ والدي ورباهُ معي فكنا كأن الطبيعة اوجدتنا معاً ليكون احدنا للآخر وكان يعمل مع ابي ايضاً . فلما سمعت من الفتى هذه الكلمات كدت اقع مغشيًّا عليّ ولم اجسر ان اصرّح لهُ بالرفض مخافة ان يحقق ما قالهُ من ايقاع الاذية بوالدي فتساقطت دموعي بغزارة و بعد قليل توسلت اليهِ ان يمهلني مدةً اراجع فيها افكاري قبل ان اجاوبهُ آملةً اني بهذا التأجيل اكسب وقتاً اطلب فيهِ الى الله ان يرشدني الى طريقة اتخلص بها من محبي هذا بدون ان يحنق على والدي . ولم اذكر لابي ولا لابن عمي شيئاً مما جرى فقضيتُ اياماً لا اكاد اذوق قوتاً وبان تأثير هذه الانفعالات عليّ بكل وضوح . فقلق والدي وشارلس و بذلا وسعهما في مداواتي بالتنزه وانواع المسرات ولم يكونا يعلمان ان في الصدر حزازةً داميةً لا يمكن شفآؤها الا بما هو اشدّ منها ضررًا . و بعد شهر من تلك المقابلة المشؤومة جآءني وليم ثانيةً طالباً مني بالحاح شديد ان اعطيهُ الجواب النهآئي فصرفنا ساعةً قضيت اكثرها بكآءٍ ونحيباً ولم استطع ان اجيبهُ بكلمة . فخرج محنقاً وقال سأنتظر الى الغد فقط فان لم احصل على جوابكِ ترين اباكِ وابن عمكِ راجعين من محل شغلهما مطرودين طردًا . فسقطت على مقعدٍ في غرفتي واستخرطت في البكآء ثم جثوت وتضرعت الى الله ان يسهل لي طريقة الخلاص من معذبي هذا ولو بموتي . اما وليم فانهُ توجه توًّا الى المعمل وقابل والدي فقال لهُ قد سألتُ ابنتك بلانش امرًا وينبغي ان تجاوبني عليهِ غدًا صباحاً من غير بد . فلما جآء والدي في العشية ورأى ما انا فيهِ مع اجتهادي في اخفآءِ الامر استدعاني اليهِ والحّ عليّ ان اطلعهُ على ما حصل بيني و بين وليم . فاضطررت ان افعل واخبرتهُ بالواقع تماماً . فلمحت في وجههِ سحابة كدر مرّت بسرعةٍ ثم اخذ في ملاطفتي ولامني على عدم اخبارهِ بذلك من اول الامر ثم وعدني انهُ سينظر في طريقة لخلاصي من وليم بدون ضرر . وهكذا رجعت اليّ نفسي فنزلنا الى غرفة المائدة واكلنا مع ابن عمي عشآءً هنيئاً ولم نكد نفرغ حتى نهض ابي فلبس قبعتهُ وخرج قائلاً انهُ ذاهب لزيارة صديق . وحدثني قلبي انهُ يضمر غير ما يقول وكانت الحقيقة انهُ توجه الى بيت وليم فقابلهُ

وأنّبهُ على تهديده اياي ومخاطبته لي في شؤونٍ كهذه بدون استشارتهِ ثم قال لهُ واعلم يا وليم ان بلانش لا تريدك فلاتطمع فيها . فقال وليم بمنتهى الشراسة واعلم انت ايضاً ان المعمل لم يعد في احتياج اليك فتعالَ غداً مع شارلس لتأخذا ما بقي من اجرتكما ولا تعودا تريانى وجهيكما بعد ذلك . فقال ابي بل نترك لك المستحق لنا مكافأةً لك على تخليصنا من مشاهدة وجهك القبيح ومعاشرة آدابك الفاسدة. وكنت انا وشارلس ننتظر والدي في الحديقة فلما عاد كان تأثرهُ شديداً حتى انهُ مرّ بجانبنا ولم يرنا حتى كلمناهُ ثم دخلنا معاً وقصّ علينا ماحصل. فشقّ علينا الامر جداً ولكن والدي كان يسلينا و يعزينا و يقول لنكن واثقين برحمة الله فانهُ لا يترك بنيهِ ولا يحرمهم حظّاً حتى يقضي لهم بافضل منهُ . آه لقد صدق والدي وقضى الله بالحظّ الافضل ولكن لهُ لا لنا فانهُ بعد ذلك بمدةٍ قصيرة افتقدهُ بمرض كان سبب وفاتهِ وفاضت روحهُ و يداهُ ممدودتان الواحدة على رأسي والاخرى على رأس شارلس

ثم شهقت بلانش ومنعتها العبرة من متابعة الحديث فاخذت اسليها الى ان سكن روعها فمسحت عبرتها ثم عادت الى اتمام حديثها فقالت

وشمر شارلس ابن عمي عن ساعد الجد والنشاط وكان يسعى في البحث عن عملٍ لهُ فصرف اياماً بدون جدوى وسُدّت في وجههِ ابواب الرزق من كل جهة فاضطرّ اخيراً ان ينتظم في سلك الجندية وعلم ان ذلك سيكون ضربةً اخرى فوق مصائبي ولكنهُ اقنعني بوجوب ذلك وعلاني بالآمال انهُ سيترقى يوماً الى رتبة لائقة فنقترن ونعيش بسرور ينسينا المرارة الماضية . وتجلدت انا ايضاً فوعدتهُ انني انتظر ذلك واساعدهُ بصلواتي وانني سأحافظ على حبهِ وذكرهِ مما لم يكن يشك فيهِ قطّ . وفي الشهر الثالث من انتظامهِ في الجيش نشبت الحرب الترنسفالية المشهورة فكانت فرقتهُ اول الفرق التي صدرت لها الاوامر بالسفر الى تلك البلاد . وكان يوم سفر شارلس اشبه بيوم وفاة والدي وكان كلٌّ منا يغالب عواطفهُ بالتجلد رأفةً بالآخر . و بعد سفر شارلس كان لديّ مبلغ قليل من المال جمعت بعضهُ من التوفير والبعض الآخر مما تركهُ لي والدي فسافرت الى ليفربول واكتريت غرفةً في بيتٍ باجرة

يسيرة وكنت اعيش بمنتهى الحكمة والتقتير . ومرّت عليَّ سنة في تلك الحال كنت اكاتب فيها شارلس ويكاتبني فيخبرني عن احواله ولا تسل عن سروري عندما بلغني منهُ انهُ رُقّي الى رتبة ملازم جزآء اقدامهِ وبسالتهِ. وفي منتصف السنة الثانية انقطعت عني اخبار شارلس فقلقت جدًّا وكنت انتظر الجرائد بشوق شديد لعلي ارى فيها خبرًا عنهُ الى ان كنت ذات يوم اطالع في احداها فوجدت خبرًا عن الفرقة التي فيها شارلس انها حاربت في موقعة شديدة امام بريتوريا ومع قلة عددها وكثرة رجال العدو فازت فوزًا مبينًا ولم يقتل من رجالها الا القليلون . ثم يقال في الرسالة ان ممن ابلى البلآء الحسن في هذه المعركة الملازم شارلس هيل فانهُ كان امام رجالهِ غير مبالٍ بالاخطار يقودهم بمنتهى البسالة والاقدام وينفخ فيهم روح الحمية التي لو لم يكن هو ومثالها لما فازت جنودنا في تلك الموقعة. ولكنهُ ما كاد يفرح بنصرتهِ هذه حتى اصابتهُ رصاصة اطارت قطعةً من جمجمتهِ فسقط قتيلاً وقد ابدى السردار والقواد مزيد اسفهم على خسارتهِ

فلما قرأت ذلك شعرت اولاً كأن مجرًى كهربآئيًّا أُطلق على جسدي فجمَّد دمي ويبَّس اعضآئي ثم سقطت الجريدة من يدي ولم اتمكن من ان اتحرك لرفعها ولبثتُ مدةً كأني شخصٌ حجريٌّ . وشعرت لاول مرة في حياتي انني اصبحت حقيقةً وحيدة في هذا العالم الواسع وكان امامي مرآة في الحائط تعكس صورتي فخلتها شبح الموت آتيًا ليأخذني الى شارلس فأطبقت اجفاني وقلت هآءنذا . وغاية ما اتذكرهُ انني شعرت كأني اسقط الى هوة القبر ثم غبت عن الوجود . . . . ولما افقت وجدت نفسي مطروحة على الارض والكرسي مرميٌّ بجانبي وقد خرج الدم من فوق صدغي الايمن وجمد على جرح اصابني في تلك السقطة . وقضيت اياماً لا اذكر شيئًا مما اجريتهُ فيها ولولم تعتنِ بي صاحبة البيت الذي كنت اقيم فيهِ — ويا ليتها لم تفعل — لكنت من زمنٍ طويل قد اصبحت جثةً هامدة

اما حياتي هناك فأصبحت في غاية المرارة والضيق ولم اعد اطيق النظر الى تلك البلاد التي يذكرني كل ما اراهُ فيها بأهلي الذين فقدتهم ومصائبي المتواترة عليَّ .

فقضيت اياماً كفاقدة العقل الى ان مررت يوماً امام مخزن قرأت على بابهِ اسم محل كوك الشهير وتحتهُ اعلان يفيد ان الشركة المذكورة مستعدة لنقل السياح الى مصر بأجور تختلف باختلاف الدرجات. ولا ادري ما الذي دفعني الى الرغبة في المجيء الى الى هذا القطر غير اني رغبت في مغادرة تلك البلاد لعلمي اني اذا كنت في ارض غريبة لا اخجل من تعاطي أي خدمةٍ أو عملٍ اتفق اذا نفدت دريهماتي واحتجت الى القوت . وهكذا دخلت المحل المذكور واكتتبت مع اصحاب الدرجة الثالثة ودفعت الاجرة المعينة . ولما جآء موعد السفر وركبت الباخرة ألقيت على وطني نظر الوداع الاخير غير عالمة بما خبأهُ لي الغيب

ولما بلغت القاهرة نزلت في فندق يوافق حالتي الماليـة . وكانت ايامي الاولى في القاهرة غير مملة لما رأيتهُ فيها من الحركة الدائمة والمناظر الجميـلة والآثار القديمة ولكن لما جآء الصيف اخذت اشعر بضيق المعيشة والانفراد . وكانت النقود الموجودة معي قد قاربت النفاد فأعلنت في احدى الجرائد اني اروم الاستخدام بصفة مربية للاولاد فلم احصل ولا على ذلك ايضاً . وساقني يوماً حظي الاسود فخرجت من الفندق وظللت سائرةً الى ان بلغت جسر قصر النيل فوقفت عليـهِ اراقب مياههُ الجارية بسرعة في معظم فيضانهِ وجال في خلدي ان ألقي بنفسي الى ذلك التيار علهُ يريحني من عذابي فيكون ارحم من معاملة الدهر لي ولكن بقية من الديانة في صدري كانت تحارب ارادتي هذه وتغلبت عليها فأسرعت الخطى حتى ابتعدت عن الجسر وسرت على غير هدًى في الطريق اليمنى المؤدية الى اواسط الجزيرة وادركني الكلال فرأيت شجرة غضة جلست تحتها طلباً للراحة . وبعد هنيهة جآءت عربة يقودها اثنان من جياد الخيل يسوقهما فتى حلو الشمائل ناضر الشبيبة تلوح على هيئتهِ ملامح اللطف والانس فاستوقف عربتهُ قرب الشجرة قبل ان يراني ثم حانت منهُ التفاتة فنظرني فاعتذر عن وقوفهِ بجانبي على غير قصد . ورأيت فيـهِ سمة العظمة والشرف والغنى فقلت لهُ لا بأس يا سيدي ولكن اسمح لي ان اسألك هل عندك عيال . قال نعم عندي عيال هي عيـال والدي اما انا فلست بمتزوج . وصبغ

الحيآء وجهي لاني خشيت ان يكون قد فهم مني غير ما اريد فأدركتهُ للحال قائلة انما سألتك عن العيال اريد هل عندكم اولاد صغار تطلبون لهم معلمة أو مربية فاني قد ارصدت نفسي لهذا العمل . فقال ربما وجدت لكِ عملاً فأين اراكِ . فأعطيتهُ عنوان الفندق و بعد ان تحادثنا حصةً من الزمن عرض عليَّ ان يوصلني في عربتهِ فشكرتهُ ورفضت وسار وهو يتلفت الى جهتي . وفي اليوم الثاني زارني الفتى المذكور في الفندق وتكلمنا فوجدت فيهِ لطفاً عظيماً ورقةً شرقية وسررت بحديثهِ فكان يزورني دائماً ويعدني انهُ ساعٍ بايجاد شغلٍ لي . واعلمني انهُ ابن احد الباشوات واسمهُ عمر بك وانهُ لم يتزوج حتى ذلك الحين لانهُ سافر مرارًا الى اوربا ولم يعد يرى في بنات جنسهِ من يود ان يقترن بهـا ثم ذكر لي انهُ قد احبني ويروم ان اقبلهُ زوجاً لي . فارتعش جسمي عند سماع هذا الكلام وقلت لهُ كيف تفكر في ذلك وانت غريب الجنس والدين عني . قال لايهمني ذلك البتة وأعدكِ اني لا اعترضكِ في مذهبكِ . و بعد ان الحّ عليَّ في هذا الطلب فكرت فيما قالهُ وأعدت نظري في احوالي الحاضرة فوجدت الامر نعمةً قد ساقها اليَّ القدر لخلاصي من الشقآء الذي وصلت اليهِ فأجبتهُ الى ما ارادهُ واقترنت بهِ . وكان الاحتفال بقراننا عظيم الابهة والجمال والزينة مستكمل اسباب الترف والسرور حضرهُ عدد غفير من سراة القاهرة وكبرآئهـا ووجدت نفسي في قصرٍ عظيم يحتوي على جميع اسباب الغنى والعظمة وفوق كل ذلك محبة عمر الشديدة لي فأيقنت ان مصائبي قد انتهت وابتدأت في حياة السعادة والهنآء . وخطر لي اذ ذاك ما كان يقولهُ لي ابن عمي شارلس وكيف كان يؤمل ان اعيش واياهُ على مثل تلك الحال فلم اتمكن من حبس نفسي عن ذرف الدموع . وكان لعمر شقيقة يحبها جدًّا توفيت وتركت ابنةً صغيرة في الثالثة من عمرها تدعى عفت فأخذها عمر وجعلها ابنةً لنا وهي هذه التي بجانبي وتظنني امها

وما كادت تتم السنة الاولى من زواجنا حتى رأيت في عمر تغيرًا وانقلاباً عظيمين فصار لا يجيء البيت الا نادرًا لينام ثم صار يسيء معاملتي فمنعني من الذهاب الى الكنيسة ثم امرني ان اغيّر لباسي وارتدي بهذه الهيئة الشرقية فكنت لا اخالف

لهُ امرًا لعلمي انهُ زوجي وعليَّ طاعتهُ . وسعيت لاعلم ما الذي جعلهُ في هذا التغير فعلمت انهُ قد سقط في شرك بعض بنات الهوى اللواتي ينصبنَ حبائلهنَّ في حانات هذه الجهات فجعلنَ عمر عبـدًا لهنَّ يدعونهُ يوميًّا الى مسامرتهنّ وتعاطي كؤوس الشراب الى ان تفقدهُ الخمرة عقلهُ فيبدد عليهنّ الاموال الطائلة ويعود الى بيتـهِ عند بزوغ نور النهار لينام . وتقدمت اليهِ يومًا لاردعهُ عن عملهِ هذا واذكـرهُ بواجباتهِ الزوجية فاستشاط غيظًا ونفر مني واعدت عليـهِ الكرة مرة اخرى فلطمني ورفسني وسقطت الى الارض مغمًى عليّ . واحاطت بعمر عصبة من اولاد جنسهِ ورتبتهِ فكانوا ينتقلون بهِ من رذيلةٍ الى ارذل ومن منكر الى انكر حتى اصبح كفاقد العقل من كثرة تعاطي الحشيش والمسكر وادمان السهر والجولان . هذا واموالهُ تنفق بدون حساب وتتدفق من بين انامل تدفق المآء . وكثيرًا ما كنت انتظر عمر ساهرة الى الصباح فيعود محمولاً على ايدي رفاقهِ أو خدمهِ ولا ازال حتى الآن في هذه الحالة الشقية وهو لا يسأل عني الا ليضايقني ولا يواجهني الا ليلطمني ولا يكلمني الا ليشتمني فآخذ هذه البُنيَّة واسير بها غائبة عن البيت مدة وجودهِ فيهِ وكثيرًا ما اقصد هذه الحديقة لقربها من بيتنا وجمال منظرها حتى اذا وقفت امام هذه البحيرة يعاودني فكر التخلص من هذه الحياة المرة بالانتحار لولا اشفاقي على مولودٍ سيظهر الى عالم الوجود قريبًا

ولما انهت بلانش قصتها ورأت التأثر الشديد البادي على وجهي قالت لم يخطئ ظني فيك ايها الصديق وغاية ما ارجو منك ان تعدني بمقابلتك حينًا بعد آخر فكفاني ان ارى من يكلمني بلغتي ويلذني حديثهُ فيسليني بعض التسلية عما انا فيهِ من المصائب . فاخذت اخفف عنها والاطفها ووعدتها بمقابلتها في يومٍ آخر وكنا كثيرًا ما نجتمع ونتفاوض فاعلم منها ان عمر لايزال يزداد في شرورهِ وانغماسهِ في الرذائل والشهوات

. . . . . .

وذهبت ذات يوم من شتآء سنة ١٩٠٣ الى محل شغلي وكانت السياح ترد اليهِ بين مشترٍ ومتفرج ورأيت رجلين بينهم قد وقفا امام مومياآء يتفرسان فيها فقال احدهما

للآخر « لو كانت عادة التحنيط باقية الى الآن لما بُعثت من قبرك » فاستغربت هذا الكلام وسألتهُ عما يعنيهِ فقال لي ان صديقي هذا قد قام من الموت . فسألت الرجل عن الامر فقال لي انهُ كان ضابطاً في الجندية واصابتهُ رصاصة في رأسهِ كسرت جمجمتهُ والقتهُ على الارض قتيلاً وان الجنود جآءت بعد الموقعة ترفع القتلى فرفعوهُ معهم ونقلوهُ الى محل الدفن . واستغرقت الاستعدادات المتبعة في مثل تلك الحالة نحو يوم كامل ثم اخذوا في مواراة القتلى في التراب بعد فحص ثيابهم واخذ اوراقهم فلما وصلت النوبة اليهِ ومدّ المأمور يدهُ الى جيب صدرهِ شعر بضربات قلبهِ فذُعر ونادى الطبيب للحال ففحصهُ فوجد انهُ لم تزل فيهِ بقية من الحياة . فنقلوهُ الى المستشفى ولبث فيهِ نحو ثلاثة اشهر زال في نهايتها كل خطر على حياتهِ وبعد ستة اشهر اخرى أُذِن لهُ في العودة الى انكلترا فعاد وبقي فيها الى هذه السنة فاستحق « اجازةً » جآء فيها القطر المصري لتغيير الهوآء

وكنت انا اسمع الحديث بقلبٍ خافقٍ وقد ملكني العجب والاستغراب فما صدقت ان فرغ من كلامهِ حتى صحت بهِ اسمك اسمك ما هو اسمك . فدُهش الرجل شديداً وقال اسمي الملازم شارلس هيل فماذا يهمك ذلك . فقلت وقد اخذ مني السرور مأخذهُ يهمني ويهمك كثيراً فانتظرني قليلاً وكان قد قرب ميعاد انتهآء عمل النهار فخرجت معهُ وهو متعجب وقد ظنني ولا شك فاقد العقل . فلما بلغنا الفندق الذي يقيم فيهِ خلوت بهِ وسردت لهُ ما سمعتهُ من بلانش وما علمتهُ منها في اجتماعاتنا التالية فكاد الرجل يجنّ فعلاً . ثم اخبرني انهُ سعى جهدهُ بعد عودتهِ الى انكلترا للوقوف على اثرها فلم يمكنهُ ذلك وظن اخيراً انها ماتت . ثم صاح بي قم بربك وخذني اليها لتعود اليَّ حياتي . فاستمهلتهُ الى صباح الغد ووعدتهُ ان اجمعهُ بها وكان اليوم الثاني موعد اجتماعي ببلانش حسب العادة ولما ذهبت الى الفندق في في الصباح رأيت شارلس ينتظرني على بابهِ وقد دلّت هيئتهُ على انهُ لم ينم تلك الليلة فسرت بهِ ودخلنا حديقة الازبكية الى المكان المعهود . وكانت بلانش قد سبقتنا فلما رأتني قامت لاستقبالي كالعادة بدون انتباه الى ان بصحبتي آخر . ولما وقع

نظرها عليهِ صاحت صياح الخائف اذا رأى شبحاً يقوم من لحدهِ ثم اسندت ذراعها الى شجرة بالقرب منها وهوت ساقطةً الى الارض . وكنت انتظر مثل ذلك فاسرعت واخذتها بذراعيّ قبل ان تسقط . ولما عادت اليها قوتها فتحت عينيها وقالت بر بك ايها الصديق ما الذي دفعك الى احضار ارواح الموتى . فقلت سكّني روعكِ يا سيدتي فان الواقف امامكِ الآن ليس شبحاً بل هو حقيقةً ابن عمك شارلس هيل . فقالت اخبرهُ اذاً اخبرهُ بكل شيء وعادت الى غيبوبتها . وكان شارلس قد اخذها بين يديهِ ودموعهُ تتساقط على وجهها تساقط المطر فكان منظرهما على تلك الحالة مما لم ارَ ولم اسمع اشدّ منهُ تأثيرًا . فصرفنا ساعة او اكثر وابت بلانش الا ان نرافقها الى بيتها ففعلنا وسألتها عن زوجها فقالت انهُ الى حين خروجي لم يكن قد عاد بعد ولا اظنهُ يعود اليوم . ولكننا مابلغنا القصر حتى رأينا الخدم يجرون وعلى وجوههم هيئة الرعب والاضطراب ولدى البحث علمنا ان عمر بك عاد الى بيتهِ في الصباح في حالة سكرٍ عظيم وكان الحشيش قد اضاع رشدهُ فدخل الى غرفتهِ في الطبقة العليا وخرج الى شرفةٍ على غير هدًى فزلت قدمهُ وسقط من ذلك العلو الشاهق فشجّ رأسهُ . فاسرعنا اليهِ وحملناهُ واستدعينا الطبيب فوجد بعد الفحص انهُ قد مات . وكانت بلانش واقفة بجانب سريرهِ مستخرطة في البكآء وتعاونت انا وشارلس فاخرجناها الى غرفة اخرى وجعلنا نعزيها فقالت نعم اتعزى ولكن بعد ان افي الزوج حقهُ فهما فعل عمر فانهُ كان زوجي

وفي اوائل الشهر الرابع من هذه السنة ولدت بلانش غلاماً ذكرًا ورث ما كان لابيهِ من الاموال الطائلة والمقتنيات واصبحت والدتهُ وصيةً عليهِ . اما ابن عمها شارلس فعاد الى انكلترا ليقدم استعفآءهُ من الخدمة ويعود للاقتران ببلانش . ولا ازال ازورها في بيتها الى الآن فنذكر ما مضى وهي تقول لي في كل مرةٍ ان قلبي اوحى اليّ من اول مرةٍ نظرتك فيها انك ستكون بشير الخير والسلام